لم يأذن الوقتُ لصديقنا الراحل محمد حمزة غنايم بالتساؤل عمَّا يبقى منه، بعد كل هذا الجهد، أو ما هو كتابه الذي سيدلُّ عليه؟. لقد شَغَلتْهُ بدايات متعدِّدة، في حقول مفتوحة، عن تعرُّف ذاته الأدبية الحقيقية، وَجَرَفتْهُ حيويَّتُه الاستثنائية في العمل على أكثر من مستوى ثقافي.

ولكن، لا يخفى على قارئه مدى هوَسه في أن يكون شاعراً مختلفاً عمّا هو سائد... لا يكتب المألوف أو المتوقع من إنسان يعيش في حيّز جغرافي وسياسي وثقافي شديد التشظي، أطلق هو عليه صفة «المنطقة الحرام».

لقد عاش هذا العربي الفلسطيني، المولود في الشرط الإسرائيلي، على الحد الفاصل بين باقة الغربية وباقة الشرقية. يحمل الهوية الإسرائيلية الاضطرارية، دون أن يساوره الشكّ في حقيقة هويته الأصلية. فهو يعرف من هو، ويعرف ما هو وطنه، ويحفظ روايته التاريخية، ويوميات حياة لا تشبه الحياة. يرى من نافذة بيته أبناء شعبه من الجهتين: داخل «الخط الأخضر» أقلية قومية مضطهدة تطالب «الدولة اليهودية» بحقوق المواطنة وبمساواة مستحيلة بين المواطنين. وخارج «الخط الأخضر» شعب واقع تحت الاحتلال المباشر يطالب «الدولة اليهودية» بالاعتراف بحقه في حياة ما واستقلال ما....

ربما، لم يعد في وسع «الشعر الوطني» أن يقدّم المزيد من البلاغة الشعرية عن هذا الشقاء اليومي الطويل، وعن تَوَتُّرٍ لا حل له بين طرفي المعادلة المرهقة. إذ، كيف يكون المرء «عربياً وإسرائيلياً» في آن واحد؟ وأيّ النصفين يفرغ الآخر من محتواه؟ وكيف ينجو الشعر إذاً من أدوات السخرية؟ لذلك، ربما، ترك محمد حمزة غنايم لغته تعبث به وبمفرداتها معاً على هواها... تقود إنساناً حائراً إلى مجابهة مصيره بشيء من العبث. لغة يعكس انكسارُها اعترافها بأنها غير قادرة على تحمل الواقع، وتوهم الفرد بأنه قد يجد مأوى ما لفرديته. لكن محمد حمزة غنايم لم يكمل رحلة البحث عن ذاته في قصيدته التجريبية، الغرائبية، المتعطشة إلى بلوغ اللامألوف. فالواقع السوريالي الدمويّ يجعل السوريالية الشعرية شديدة الواقعية وأقل غرابة!

ولأن الشعر لا يكفي، ولا يطيع طموح الشاعر، أراد محمد حمزة غنايم الواقف في المنطقة الحرام، أن ينتقل من موضوع للمعرفة إلى ذات عارفة، فأنجز دراسات قيّمة في ثقافة الآخر الإسرائيلي، وأجرى محاورات أو سجالات عميقة مع مختلف التيارات الفكرية الإسرائيلية ببصيرة نافذة درست الفكر الإسرائيلي من داخله، وزوَّدت الوعي العربي بمعرفة أعمق، وبتمييز ضروري بين المعرفة والتطبيع.

لكن سؤال التطبيع احتدم عندما أقدم محمد حمزة غنايم على ترجمة شيء من الأدب العبري إلى العربية، ومن الشعر العربي إلى العبرية. لم يأت الاحتجاج من بعض المثقفين العرب فقط، فقد كان الإقبال الإسرائيلي الشحيح على معرفة إنسانية الآخر العربي من خلال أدبه دليلاً على أن «الآخر» لا يكترث بمعرفة «الآخر» إلاّ لمتطلبات تحسين شروط الصراع أو شروط التفاوض!

لكن محمد زحزح الصخرة قليلاً بدأب النمل، وبطاقة هائلة على العمل. ما زالت بداياته مفتوحة على بدايات جديدة. وإذا كان تصوُّره الشعريّ أكبر من قصيدته، فلأنه كان يبحث عن الجديد اللامألوف، واللامتوقع. ولأنه كان في صراع مع المشاريع والوقت، ما لبث أن تطوَّر إلى صراع مع الموت، الذي لم يكن جواباً على الجانب العبثي من الوجود، بقدر ما كان استطراداً للصراع على المعنى!